إِمَامٌ يَتَعَلَّمُ مِنْ حَجَّامٍ!!

الدكتور محمد عمر الحاجي

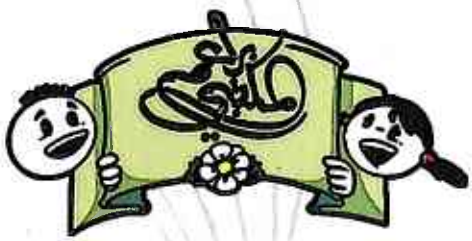

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

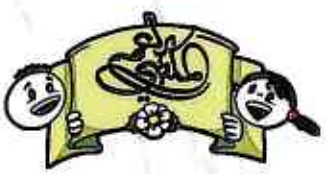

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف 00963112248433 فاكس 00963112248432 ص.ب 31426

الشارقة هاتف 0097165512262 فاكس 0097165512264 ص.ب 3309

e-mail:daralbaraem@gmail.com almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

* فَلزِمْتُ الفِقْهَ وتَعلَّمْتُهُ *

أبو حَنِيفةَ النَّعمانُ بنُ ثابتٍ ، إمامُ الحنفيَّةِ ، فقيهٌ مُجتهدٍ، وُلد سنة (٨٠ هـ) في الكُوفة، عمِلَ في التِّجارةِ، ثُمَّ انْقطعَ للعِلْمِ والتَّدريسِ ، أُوتِي الحُجَّةَ والبُرهانَ؛ حتى قالَ عنه إمامُ دارِ الهجرةِ ، الإمامُ مالك: رأيتُ رَجُلاً لو كَلَّمْتَهُ في هذه السَّاريةِ أَنْ يَجْعَلَها ذَهَباً لَقامَ بِحُجَّتِهِ!

كان له تلاميذُ كُثُرٌ، وكانَ يَتعامَلُ مَعهم في الدُّروسِ كأنه واحِدٌ منهم ، بل كانَ يصرفُ على كثيرٍ منهم.

ويُعَدُّ الإمامُ من أوائلِ الَّذينَ وَضَعُوا أُصولَ الفِقْهِ ، وقَواعِدَ الاسْتِنْبَاطِ ، والمنهجَ العلميَّ في البحثِ ، حتَّىٰ قال عنه الإمامُ الشَّافِعيُّ: الناسُ عِيالٌ في الفِقْهِ على أبي حَنِيفَة!

شَغَلَهُ التَّدريسُ والمُنَاظَراتُ عن تأليفِ الكُتُبِ ، ومع ذلكَ فقد نُسِبَ إليهِ بعَضُ الكُتُبِ ، مثل: المسْنَد ، والمخارِجِ في الفِقْه ، والفِقْهِ الأكبر.

بَرَزَ عددٌ مِنْ تلامِذَتِهِ ، وأَصْبَحُوا فيما بعد من أَساطِيْنِ العِلْمِ ، مثل الإمامِ أَبي يوسف ، والإمام زُفَر ، والإمام محمد بن الحسن الشَّيباني وغيرهم.

وبعد حَياةٍ حافِلَةٍ بالعلم والتَّدريس والتَّمْحِيصِ والتَّحْقيقِ ، أَسْلَمَ الإمامُ الرُّوحَ إلى بارِئِهَا ، وكان ذلكَ في سَنَةِ (١٥٠ هـ) رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً واسِعَةً.

جَرَتْ معهُ حِكاياتٌ نافِعَةٌ ، فيها العِبَرُ والعِظَاتُ ، منها ما أَوْرَدَهُ الإمامُ الذَّهَبِيُّ ، قال: عن أبي يوسف ، قال: قال الإمامُ أبو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ اللهُ:

لما أردتُ طَلَبَ العِلْم ، جَعَلْتُ أَتخيَّرُ العلومَ ، وأَسْأَلُ عَنْ عَواقِبِها ، فقيلَ لي: تَعَلَّمِ القُرآنَ.

فقلتُ: إذا حَفِظْتُهُ فما يَكُونُ آخِرُهُ؟

قالُوا: تَجلسُ في المسجدِ فيقرأُ عليكَ الصِّبيانُ والأَحْدَاثُ ، ثم لا يلبثُ أَنْ يَخْرُجَ فيهم مَن هُوَ أَحْفَظُ مِنْكَ أَوْ مُساوِيْكَ ، فَتَذْهَب رِئاسَتُكَ!

قلتُ: مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِلرِّئاسةِ قد يُفكِّرُ في هذا ، وإلا

فقد ثَبَتَ قولُ المُصطفىٰ ﷺ: «أَفْضَلُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ» ، يا سُبْحَانَ اللهِ! وهل مَحَلٌّ أَفْضَلُ من المَسْجِدِ؟

وهل نَشْرُ العِلْمِ يُقارِبُ تعليمَ القُرآنِ؟ كَلاَّ واللهِ ، وهل طَلَبه خيرٌ من الصِّبيانِ الذين لم يَعْمَلُوا الذُّنُوبَ؟

قالَ: قُلْتُ: فإنْ سَمِعْتُ الحديثَ وكَتَبتُهُ حتىٰ لم يكن في الدُّنيا أَحْفَظَ مِنِّي؟

قالوا: إذا كبرتَ وضعفتَ ، حدَّثْتَ واجْتَمَعَ عليكَ هؤلاء الأحداثُ والصِّبيانُ ، ثم لم تأمَنْ أن تَغْلَطَ ، فيرموكَ بالكَذِبِ فيصيرَ عاراً عليكَ في عَقِبِكَ ـ أي: في ذُرِّيَّتِكَ ـ.

قالَ فَقُلْتُ: لا حاجةَ لي في هذا ، أَتَعَلَّمُ النَّحْوَ ، ولكن إذا حَفِظْتُ النَّحو والعربيَّةَ ما يكونُ آخِرُ أَمْرِي؟

فقالُوا: تَقْعُدُ مُعَلِّماً فأكْثَرُ رِزْقكَ ديناران إلى ثلاثةٍ!

قلتُ: وهذا لا عاقبةَ لهُ ، لكن إذا نَظَرتُ في الشِّعرِ أكونُ ماذا؟

قالوا: تمدحُ هذا فيثيبُ لك ، أو يَخْلَعُ عليك ـ أي

تُعْطَىٰ الهدايا والجوائز ـ وإنْ حَرَمَكَ هَجَوْتَه.

قلتُ: لا حاجة لي فيه أيضاً.

قلتُ: فإن تعلّمتُ الفِقْهَ: قالوا: تُسْأَلُ وتُفْتِي النَّاس ، وتُطْلَبُ للقضاءِ ، وإن كُنْتَ شاباً ، فقلتُ: ليسَ في العلومِ أنفعُ من هذا ، فلزمتُ الفِقْهَ وتَعَلَّمْتُهُ!!

* إمامٌ يَتَعَلَّمُ مِنْ حَجَّام *

وَمِنَ الحكاياتِ النَّافعةِ هذه الحكايةُ التي رَواها ابنُ خِلِّكان:

قال أبو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ اللهُ: أخطأتُ في خَمْسَةِ أبوابٍ في مناسِكِ الحجِّ بمكَّةَ ، فعلَّمَنِيها حَجَّامٌ ـ وهو الشَّخْصُ الذي يقومُ بالحِجامَةِ ـ وذلكَ أَني أردتُ أَنْ أَحْلِقَ رَأسي ، فقلتُ: بكم تحلقُ رأسي؟ فقال: أَعربيٌّ أَنْتَ؟

قلتُ: نَعَمْ.

فقالَ لِي: النُّسكُ لا يُشارَكُ فِيهِ ، اِجْلِسْ.

فجلستُ مُنْحَرفاً عَنْ القِبْلَةِ ، فأومأَ ـ أي أشار ـ لي باستقبال القِبْلَةِ!

وأردتُ أَنْ أَحْلِقَ رأسي من الجانبِ الأَيْسَرِ ، فقال: أَدِرْ شِقَّكَ الأيمنَ من رأسكَ ، فأدرْتُهُ ، وجعل يَحْلقُ وأنا ساكتٌ ، فقال لي: كبِّر ، فجعلتُ أُكَبِرُ حتىٰ قُمْتُ لأذهبَ ، فقالَ: أين تُريدُ؟ قلتُ رَحْلي؟ فقال: صلِّ ركعتين ثم امضِ.

فقلتُ: ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجَّامِ إلا ومَعَهُ عِلْمٌ!

فقلتُ: من أينَ لكَ ما رأيْتُكَ أَمَرْتَنِي بِهِ؟ فقال: مِنْ عطاءِ بنِ أبي رَباح رَحِمهُ اللهُ.

* لا أَصْلُحُ للقَضَاءِ!! *

وأَوْرَدَ الإمامُ الذَّهَبِيُّ هذه الحكايةَ المفِيْدةَ ، والتي فيها العِبَرُ ، وذلكَ في مَعْرِضِ الحديثِ عَنْ وَرَعِ الإمامِ أَبِي حَنِيْفَةَ:

دعا الخليفةُ المنصورُ أبا حَنِيْفَةَ إلى القَضَاءِ؛

فامْتَنَعَ ، فقال الخليفةُ وقد بَدَتْ عليه أماراتُ الغَضَبِ:

أترغبُ عمَّا نحنُ فيهِ؟

فقالَ الإمام: لا أَصْلُحُ!

فقال المنصور: كَذَبْتَ.

فقال أبو حَنِيفةَ: فقد حَكَمَ أميرُ المُؤمِنينَ علي أني لا أَصْلُحُ ، فإن كنتُ كاذباً فلا أَصْلُحُ ، وإن كنتُ صادقاً فقد أخبرتكم أنِّي لا أَصْلُحُ!

فأمر المنصورُ بحبسِهِ وتَعْذِيبه ، فسُجِنَ وضُرِبَ حتى ماتَ في السِّجْنِ!!

* ما زالَ جبْريلُ يُوصِيني بالجَار..*

وذكرَ ابنُ خِلِّكَان هذه الحكايةَ المفيدةَ ، والتي حَدَثت مع الإمامِ أبي حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ اللهُ ، فقال: قال عبدُ اللهِ بنُ رَجَاءٍ:

كان لأبي حَنِيْفَةَ جارٌ بالكوفةِ يعملُ إِسْكافاً ـ أي: في تَصْنيع وتصْليحِ الأحذِيةِ ـ وكانَ الإسكافيُّ يعملُ نَهارَهُ أَجْمَعَ ، حتىٰ إذا جَنَّ عليهِ اللَّيلُ رجعَ إلى منزلِهِ ،

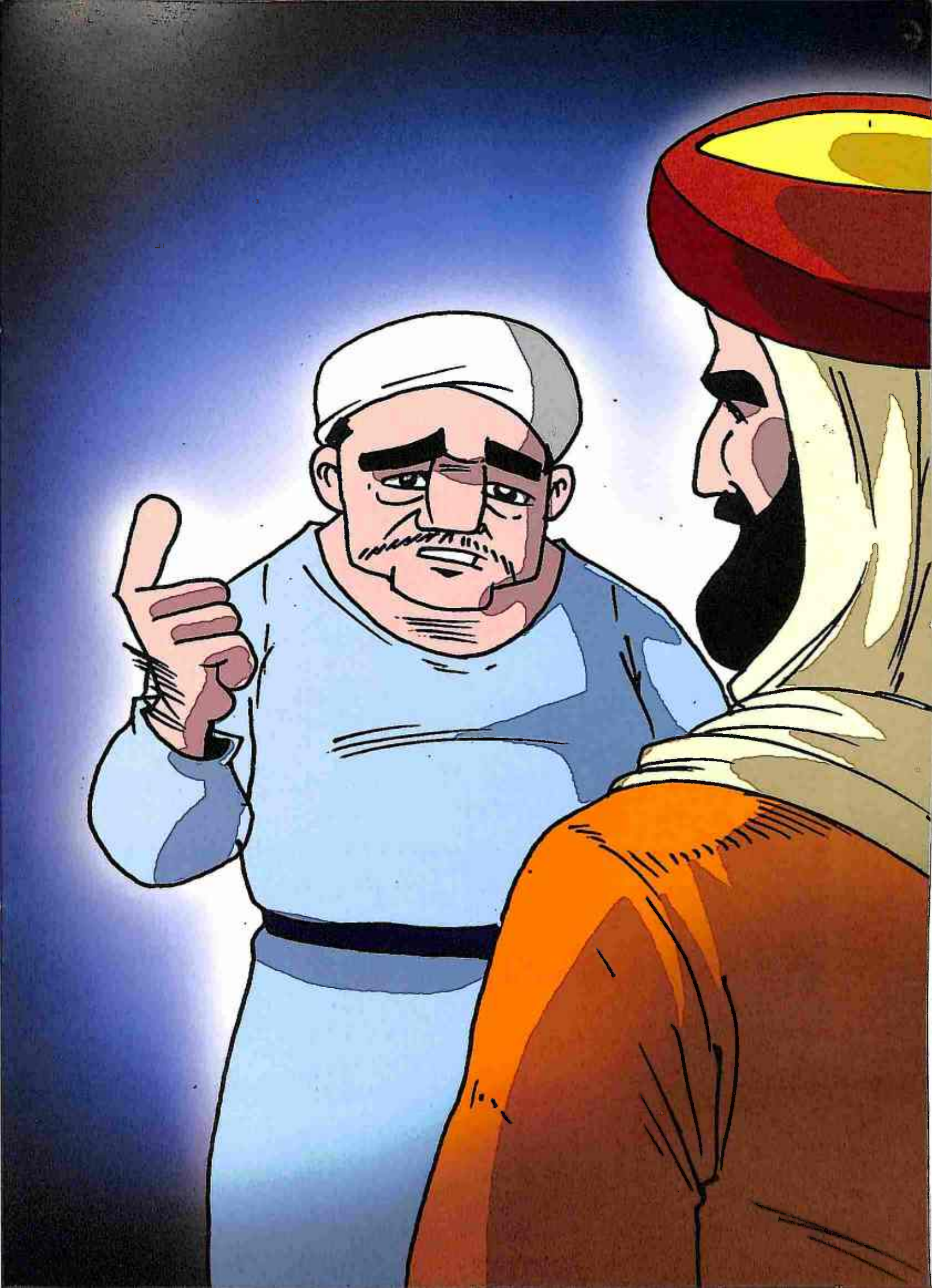

وقد حَمَل لحماً ، فيطبخه ، أو سمكَةً فيشويها ، ثُمَّ لا يزالُ يشربُ ـ أي الخمر ـ حتىٰ إذا دبَّ الشَّرابُ فيهِ غرَّدَ بصَوْتٍ ، وهو يقولُ:

أَضـاعُـونـي وأيّ فَتًـى أضـاعُـوا

ليـوم كـريهـةٍ وسَـدادِ ثَغْـرِ

ولا يزالُ الإسْكَافيُّ يشرَبُ ، ويردِّدُ هذا البيتَ حتىٰ يأخُذَهُ النَّومُ!

وكـانَ أبـو حنيفـةَ رحمـهُ الله يسمـعُ جَلَبَتَـهُ ـ أي صِياحَهُ وصَخَبهُ ـ كلَّ ليلةٍ ، لأنه كان يُصلِّي اللَّيلَ كُلَّهُ!

وذاتَ لَيْلَةٍ قامَ أبو حَنِيفةَ لِيُصلِّي ، فلم يَسْمَعْ صَوْتَ جارِهِ ، ولما انْتَهىٰ من صَلاتِهِ ، وعادَ من صَلاةِ الفَجْرِ ، سألَ عَنْهُ ، فقيلَ: أَخَذَهُ العَسَسُ ـ أي حرس اللَّيل ـ البارحةَ ، وهو مَحْبُوسٌ.

فركبَ الإمامُ بَغْلَتَهُ ، وانْطَلَقَ إلى قَصْرِ الأَمِيْرِ ، وهُناكَ اسْتَأْذَنَ بالدُّخُولِ عليهِ ، ولما أُعْلِمَ الأميرُ ذلكَ ،

قال لحاشِيَتِهِ: ائْذَنُوا لَهُ ، وأَقْبِلُوا به راكباً ، ولا تَدَعُوهُ ينزلُ حَتى يَطَأَ البِساطَ بِبَغْلَتِهِ.

فَفَعلُوا ، ولم يزل الأميرُ يُوسِّعُ له في مَجْلِسِه ، ثم قالَ لهُ: ما حاجَتُكَ يا إِمَامُ؟.

قال أبو حنيفة: لي جارٌ إسكافيٌّ أَخَذَهُ العَسَسُ ، وأُرِيْدُ أَنْ تُفْرِجُوا عَنْهُ.

فقالَ الأمير: نَعَمْ ، وكلُّ مَنْ حُبِسَ مَعَهُ إِكْراماً لَمَجِيئكَ إِلَينا؟

ولما أُفْرِجَ عَنِ الرَّجُلِ رَكِبَ أبو حنيفةَ بَغْلَتَهُ ، والإسكافيُّ يَمْشِي وراءَهُ ، حتَّىٰ إذا وَصَلَ الإمامُ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، التفتَ إلى الرَّجُلِ وَسَأَلَهُ: هَل أَضَعْنَاكَ يا هذا؟

فقال: لا ، بل حَفِظْتَ ورَعَيْتَ ، وجَزَاكَ اللهُ خَيراً عن حُرْمَةِ الجِوَارِ ورعايةِ الحَقِّ.

ثُمَّ أعلنَ الرَّجُلُ تَوْبَتَهُ أمامَ النَّاسِ ، وتَرَكَ الشَّرابَ والغِناءَ ، وأَصْبحَ مِنْ رُوَّادِ المساجِدِ ودُرُوسِ العِلْمِ.

* * *